تقسيم الأندلس إلى ولايات

قُسمت الأندلس إلى عدة ولايات معروفة بمدنها وقصباتها كالتالي[١]:

- **الولاية الأولى** - كانت الولاية الأولى تشمل إقليم الأندلس، الممتد بين البحر المتوسط ونهر الوادي الكبير، وما يلي هذا النهر حتى نهر وادي يانه، وأشهر مدنها: قرطبة، وأشبيلية، ومالقة، وإستجة، وجيان.
- **الولاية الثانية** - وتشمل جميع أسبانيا الوسطى من البحر المتوسط شرقًا إلى حدود البرتغال غربًا (لوزيتانيا) ثم إلى نهر دويرة (دورو) شمالاً، وأشهر قواعدها طليطلة، على نهر تاجُه، وقونقه، وشقوبيه، وبلنسية، ودانية، ولقنت، وقرطاجنة، ومرسية، ولورقة، وبسطه.
- **الولاية الثالثة** - جليقية ولوزيتانيا (البرتغال القديمة) وأشهر قواعدها: ماردة، ويابرة، وباجة، ولشبونه، وقلمرية، ولك، واسترقة، وشلمنصة، وغيرها.
- **الولاية الرابعة** - تمتد من نهر دويرة إلى جبال البرنية (جبال ألبرت أو الممرات) على ضفتي نهر إبرة (إيبرو)، وغربًا إلى جليقية، وأشهر قواعدها: سرقسطة، وطرطوشة، وطركونة، وبرشلونة، وأرقلة (أرجل)، وبلد الوليد، ووشقة، وببشتر.
- **الولاية الخامسة** - لمّا اتسع نطاق الفتوح الإسلامية شمالاً، أُنشئت ولاية خامسة شمالي جبال البرنية شاملة لأربونة، ونيمة (أولدمشو) وقرقشونة، وبزييه، وأجده، وماجويلون (أومقلون) ولوديث.

وقد تفرقت القبائل في هذه الولايات والقواعد الجديدة، تفرقت القبائل والعشائر المختلفة:

---

(١) «دولة الإسلام في الأندلس» د/ عنان (جـ١، ص٧٠).

- فنزلت قبائل دمشق بكورة قرطبة.
- وحمص باشبيلية، ولبله وأنحائهما.
- وقنسرين بجيان وأنحائهما.
- وفلسطين بشذونه والجزيرة دريُّة ومالقة وأنحائها.
- وقبائل اليمن بطليطلة وأراضيها.
- ونزل الفرس بشربيش وأحوازها.
- ونزل العراقيون بكورة البيرة وغرناطة.
- ونزل المصريون بتدمير وماردة وأشبونه وأراضيهما.
- ونزل الحجازيون بالقواعد الداخلية[١].
- أما البربر فقد نزل أغلبهم بالأطراف الغربية في نواحي ماردة وبطليوس وأراضي البرتغال، ونواحي الثغر الأوسط شمالي طليطلة فيما وراء نهر التاجة، وفي بعض أنحاء الثغر الأعلى، وفي قطاع قونقة والسهلة، ونزلت أقليات منهم بين القبائل العربية، بنواحي شاطبة ولقنت، وفي أحواز شذونة وأراضي الفرنتيزة[٢].

ونجد القبائل العربية قد احتلت معظم الوديان الخصبة في شبه الجزيرة، بينما نزل البربر بالعكس في أقاليم وهضاب قاحلة، ولم يحتلوا من البقاع الخصبة سوى القليل.

ويقول د/ عنان[٣]: «وقد كان هذا التقسيم المجحف للأقاليم المفتوحة عاملاً من عوامل ازدياد الشقاق بين العنصرين الفاتحين العربي والبربر».

---

(١) ابن خلدون (جـ٤، ص١١٩).

(٢) «جمهرة أنساب العرب» لابن حزم (ص٤٦٤، ٤٦٥).

(٣) «دولة الإسلام» (جـ١، ص٧١).

ولاية عبد العزيز بن موسى بن نصير
(أول ولاة المسلمين للأندلس)

عرفنا أن موسى بن نصير اختار قبل رحيله إلى المشرق، ولده عبد العزيز لولاية الأندلس، وذلك في (ذي الحجة سنة ٩٥هـ)، فكان أول ولاتها من المسلمين، وأن سليمان بن عبد الملك قد أقر هذا الاختيار، فقضى عبد العزيز بن موسى في ولايته زهاء عامين عنيَ فيهما بتحصين الثغور، وقمع الخروج والعصيان، وافتتح عدّة أماكن وحصون، وأبدى همّة في تنظيم الحكومة الجديدة وإدارتها، وأنشأ ديوانًا لتطبيق الأحكام الشرعية وتنسيقها، لتوافق مشارب الرعايا الجدد من أهل الأندلس، ولتجمع حولها كلمة المسلمين من مختلف القبائل.

وشجع الزواج بين العرب والأسبان، وتزوّج هو بالملكة «إيجلونا» ابنة ملك القوط[١] (وقيل أرملته)، واشتهر اسمها بين العرب بام عاصم أو إيله، واختار في إشبيلية عاصمة الأندلس الجديدة دير «سانتا روفينا» ليكون مقامًا له ولزوجته، وفيه أُجريت أول تعديلات على الطراز العربي.

ووفد عليه المهاجرون من مصر والشام والعراق وفارس، فأحيوا بالجزيرة سبل الزراعة والصناعة والتجارة، ولكنه لم يستطع أن يوفق بين مختلف القبائل، ولا أن يهدئ من ثورة الجند، هذا إلى ما ثار من ريب حول مقاصده بانقياده إلى زوجته، واتخاذه نوعًا من رسوم الملك حتى قيل أنّه تنصّر، وقيل أنه كان يبغي الملك ويسعى بتحريض زوجته ويعمل للاستقلال باسبانيا.

كل هذا جعل خصومه يشنون عليه وعلى تصرفاته دعاية قوية، انتهت بالثورة، فوثب به جماعة من الجند على رأسهم وزيره حبيب بن أبي عبيدة

---

(١) ابن عذارى في «البيان المغرب» (جـ٢، ص٢٢).

الفهري، وقتلوه أثناء صلاته بأحد مساجد إشبيلية، وذلك في (رجب سنة ٩٧هـ - يناير سنة ٧١٦م)، وبعثوا برأسه إلى دمشق، مما يدل على أن سليمان بن عبد الملك والخلافة في دمشق لها دور في مقتله، حتى قيل إن سليمان عرض الرأس على موسى؛ زيادة في إيلامه والتشفّي منه[1].

(١) انظر «تاريخ الأندلس» لابن القوطية (ص٤١)، وابن عبد الحكم (ص٢١٢) وما بعدها، وابن عذارى في «البيان المغرب» (جـ٢، ص٢٢، ٢٣).

ولاية أيوب بن حبيب، والحر بن عبد الرحمن الثقفي

بعد مقتل عبد العزيز بن موسى اتفق الزعماء في إشبيلية على تولية أيوب بن حبيب اللخمي، وهو ابن أخت موسى بن نصير، وكان عاقلاً صالحًا؛ فهدأت الخواطر نوعًا ما، ولبث في ولايته ستة أشهر، ثم أقاله محمد بن يزيد الذي خلف عبد الله بن موسى في ولاية أفريقيا، وعيّن لولاية الأندلس الحر بن عبد الرحمن الثقفي، الذي نقل عاصمة الحكم إلى قرطبة[١]، فقدمها في (ذي الحجة سنة ٩٧هـ) في جماعة كبيرة من وجوه أفريقيا.

وأنفق الحر مطلع ولايته في قمع الفتن والقضاء على المنازعات التي كانت قائمة بين العرب والبربر، وإصلاح الجيش، ومطاردة الخوارج والمعتدين من الجند، وتنظيم الإدارة وتوطيد الأمن، وكان الحر صارمًا جائرًا شديد الوطأة، ثم سار نحو الشمال في جيش ضخم؛ ليستعيد المدن والحصون الشمالية التي غزاها المسلمون من قبل، فعبر جبال البرنية، واخترق ولاية سبتمانيا أو لانجدوك في (ربيع سنة ٩٩ هـ - ٧١٨م).

وكانت مدن سبتمانيا وقرقشونة وأربونة وبزييه ونيمه تابعة لمملكة القوط، وكانت تخلفت عن الطاعة بعد أن غزاها المسلمون لأول مرة بقيادة موسى بن نصير - كما ذكرنا - فافتتحها الحر واستولى عليها، وتابع زحفه حتى ضفاف نهر الجارون، ولكنه اضطر أن يعود أدراجه، عندما علم أن النصارى في منطقة ناڤار الجبلية (نبرّه أو بلاد البشكنس) قد نظموا حركة مقاومة خطيرة، وأن الأحوال قد اضطربت في قرطبة، واختل النظام، وعادت المنازعات والدسائس تعمل عملها في تقويض الأمن والسكينة، فقضى الحر وقتًا طويلاً في قمع الفتنة، حتى عزله أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز في منتصف سنة مئة (١٠٠ هـ)؛ لقسوته وصرامته، واضطراب النظام في عهده، فكانت ولايته سنتان وثمانية أشهر، وعادت فيها القلاقل والفتن[٢].

---

(١) «نفح الطيب» (جـ٢، ص٥٦).

(٢) «دولة الإسلام في الأندلس» د/ عنان.

ولاية السمح بن مالك الخولاني

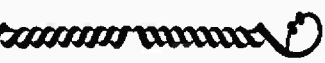

كان عمر بن عبد العزيز قد تولى الخلافة، فاختار لولاية الأندلس السمح بن مالك الخولاني، وقرر أن تكون الأندلس ولاية مستقلة عن أفريقية تابعة للخلافة مباشرة؛ وذلك لما رآه من أهميتها واتساع شئونها، وكانت إلى ذلك الحين تابعة لوالي أفريقيا، وهو الذي يقوم بتعيين ولاتها.

وذكر ابن عذارى[١] أن عمر بن عبد العزيز فكّر في إخلاء الأندلس وإجلاء المسلمين قاطبة عنها؛ لانقطاعهم بها، وعزلتهم فيما وراء البحر عن باقي أقطار الخلافة، فقيل له: إن المسلمين قد تكاثروا بها واستقروا. فعدل عن مشروعه. وقالوا: «وليت الله تعالى أبقاه حتى يفعل، فإنّ مصيرهم مع الكفار إلى بوار إلاّ أن يستنقذهم الله برحمته».

وجاء «السمح بن مالك الخولاني» إلى الأندلس في (رمضان سنة ١٠٠هـ - أبريل سنة ٧١٩م) مزوداً بنصائح الخليفة، وأولها بالطبع العدل، فمنه يأخذ وبه يقتدي، والرفق بأهل الرعية الجدد، وأن يُقيم كلمة الحق والدين.

وكان السمح بن مالك حاكمًا وافر الخبرة والحكمة والعقل، فقبض على زمام الأمور بحزم وهِمَّة، وبادر بقمع المنازعات والفتن وإصلاح الإدارة والجيش، وخمس جميع أراضي الأندلس التي فُتحت عنوة، وقرر عليه الخراج بنسبة الخمس بعد أن حصرها جميعًا.

وأنشأ السمح قنطرة قرطبة الشهيرة على نهر الوادي الكبير؛ تحقيقًا لرغبة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، وأبدى في جميع أعماله حزمًا ورفقًا وعدلاً، فالتفّ الزعماء حوله، وخبت الفتنة وهدأت الخواطر، واستقرّ النظام والأمن، وكان السمح جنديًا جريئًا وقائدًا عظيمًا، فلما انتهى من مهمة التنظيم والإصلاح

---

(١) «البيان المغرب» (جـ٢، ص٢٥).

تأهب لاستئناف الغزو، وتوطيد سلطان الخلافة في الولايات الجبلية، والقواعد الشمالية، التي لم يستطع أن يتمم إخضاعها الحر الثقفيّ، فزحف على لانجدوك «سبتماتيا» في أواخر سنة (٧١٩م) في جيش ضخم، وفي جماعة كبيرة من وجوه الزعماء والقادة، واخترق جبال البرنية من الشرق من ناحية دوسيون، واستعاد أربونة وقرقشونة، ومعظم قواعد «سبتمانيا» وحصونها، وعاث في تلك الأنحاء، وشتت كل قوة تصدت لمقاومته، ووقعت هذه الغزوة الشاملة في سنة (٧٢٠م - ١٠١هـ)، وقد اجتاح العرب يومئذ غاليس القوطية كلها، وجميع قواعد «سبتمانيا» ثم اتجه السمح بعد ذلك نحو الشرق ليغزو مملكة الفرنج الجنوبية، وزحف نحو «تولوز»، وكان الصدام العنيف بين العرب والفرنج.

عبور السمح بن مالك إلى فرنسا:

تولى «كارل مارتل» قيادة دولة الفرنج بعد صراع داخلي طويل، وأصبح محافظًا للقصر لا ينازعه منازع، وذلك منذ سنة (٧٢٠م)، وأصبح يحكم جميع الفرنج في أوستراسيا ونوستريا.

أما السمح بن مالك والي الأندلس الإسلامي، فقد غزا ولاية سبتمانيا القوطية، واستولى على قواعدها، وزحف المسلمون بقيادته على مدينة تولوشه (تولوز) عاصمة أكوتين، وكان أورد دوق أكوتين أحد أعضاء الأسرة المدقنجية، أقوى أمراء الفرنج في فرنسا وأشدهم بأسًا، وكان أثناء الاضطراب الذي ساد مملكة الفرنج قد استقل بإقليم أكوتين وبسط نفوذه على جميع فرنسا الجنوبية، من اللوّار إلى البرنيه، والتف حوله القوط والبشكنس (الناڤاريون) وأخذ يطمح إلى انتزاع ملك الفرنج، أو ملك أسرته، ويُعد العدّة لقتال كارل مارتل المتغلب عليه، ولكنه اضطر أن يشغل عن مشروعه برد خطر العرب الداهم.

أمّا السمح فقد استولى على سبتمانيا وأقام بها حكومة إسلامية، ووزع الأراضي بين العرب والسكان، وفرض الجزية على النصارى، وترك لهم حرية

الاحتكام إلى شرائعهم، ثم زحف نحو الغرب؛ ليغزو أكوتين كما قدّمنا، فقاومه البشكنس والغسقدنيون سكان هذه الأنحاء أشد مقاومة، ولكنه فرّق جموعهم وقصد إلى تولوشه، وكان الدوق أودو قد جمع في تلك الأثناء جيشًا ضخمًا، وسار لرد العرب، وعلم السمح بذلك فارتدّ عن مهاجمة تولوشة ليلقى جيش الدوق - رغم تفوقه على جيشه في العدد -.

والتقى الفريقان بظاهر تولوشه، ونشبت بينهما معركة هائلة سالت فيها الدماء الغزيرة، وكثر القتل في الجيشين، وأبدى المسلمون - رغم قلتهم - شجاعة خارقة، وتراوح النصر حينًا بين الفريقين، ولكن السمح سقط قتيلاً من فوق جواده، فاختل نظام الفرسان المسلمين، ووقع الاضطراب في الجيش كله، وارتدّ المسلمون إلى سبتمانيا بعد أن فقدوا زهرة جندهم، وسقط عنهم عدة من الزعماء الأكابر، وذلك في التاسع من ذي الحجة سنة اثنين ومئة (٩ يونيو سنة ٧٢١م - الموافق ١٠٢هـ)[١]، وكان لابد للجيش أن يختار قائدًا يحل محل السمح بن مالك.

(١) «البيان المغرب» لابن عذارى (جـ٢، ص٢٥)، «تاريخ ابن خلدون» (جـ٤، ص١١٨).

عبد الرحمن الغافقي واليًا على الأندلس

كان لمقتل السمح بن مالك أثرٌ في نفوس المسلمين، لكنهم تداركوا الأمر واختاروا عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي لقيادة الجيش.

من هو الغافقي: هو أبو سعيد عبد الرحمن بن عبد الله بن بشر بن الصارم الغافقي نسبة إلى غافق، وهي قبيلة من قبائل الأزد.

وقيل: بل هو غافق بن الحارث بن عك بن الحارث بن عدنان وعُرف بالعكي نسبة إلى بني عك، وغافق بطن منهم، تابعي جليل، ورجل فذ، جمع إلى الشجاعة والإقدام العدل في الأحكام، والسهر على مصالح العباد، وبُعْد النظر في السياسة، تعمد المؤرخون الإيجاز في سيرته والاكتفاء بمجرد الإشارة مع عظيم تقديرهم له[١].

رحل عبد الرحمن الغافقي إلى أفريقية، ثم وفد على سليمان بن عبد الملك - الخليفة الأُموي - بدمشق، وعاد إلى المغرب، فاتصل بموسى بن نصير وولده عبد العزيز أيام إقامتهما في الأندلس.

ظهرت براعته في إنقاذ الجيش الإسلامي من المطاردة، عقب مقتل السمح بن مالك الخولاني في طولوشه، وتولى على إثر معركة طولوشه (تولوز) سنة (١٠٢هـ)، فانتقل إلى أربونة، فانتخبه المسلمون أميراً عليها، وأقره عامل أفريقيا، ولبث يُخمد الفتن حتى قدم عنبسة بن سحيم الكلبي، الذي اختاره بشر بن صفوان الكلبي والي أفريقية، واليًا للأندلس، وكان الخليفة عمر بن عبد العزيز قد جعل الأندلس ولاية مستقلة كما قدّمنا، تتبع الخلافة مباشرة، ولكن خلفه يزيد بن عبد الملك لم يُقر هذا التعديل، فعادت الأندلس تابعة لإفريقيا كما كانت،

---

(١) «فجر الأندلس» د/ حسين مؤنس (ص٢٦١).

وقدم عنبسة بن سحيم الكلبي إلى الأندلس في صفر سنة (١٠٣هـ) وأنفق حينًا في تنظيم الإدارة، وضبط النَّواحي، وإصلاح الجيش، وإعداده لغزوات جديدة.

وفي أواخر سنة (١٠٥هـ) أوائل سنة (٧٢٤م) سار عنبسة في الجيش إلى الشمال غازيًا، وعبر جبال البرنية مرة أخرى، وغزا سبتمانيا التي فقد المسلمون كثيرًا من معاقلها، منذ هزيمة تولوشه، واستولى على قرقشونة ونيما وما بينهما من القواعد، وارتد القوط عن محالفة الفرنج إلى محالفته، وتابع زحفه شمالاً في وادي الرون ونفذ إلى برجويته حتى مدينة أوتون، فغزاها وخربها في (أغسطس سنة ٧٢٥م) ثم غزا مدينة حصانص، وخشي أودوق أكوتين أن يهاجمه المسلمون مرّة أخرى؛ فسعى إلى مفاوضتهم ومهادنتهم، وبسط المسلمون سلطانهم قويًا في شرق جنوبي فرنسا.

وفي ذلك يقول المؤرخون: كان نجاح عنبسة راجعًا إلى الجرأة والبراعة، أكثر منه إلى القوة والكثرة، وكان لينه ورفقه وحسن معاملته للسكان عاملاً في تقوية سلطان الإسلام في جنوبي فرنسا»[1].

ولكن المفاجأة أصابت المسلمين في مقتله عندما داهمتهم جموع كبيرة من الفرنج فأصابت منهم إصابات بالغة، ارتدوا على أثرها للداخل، وقتل عنبسة متأثرًا بجراحه في المعركة في (شعبان سنة ١٠٧هـ - ديسمبر سنة ٧٢٥م)، وعاد الاضطراب إلى الجزيرة.

وعلى مدى خمسة أعوام بعد وفاة عنبسة توالى الولاة على الأندلس.

- فتولى عذرة بن عبد الله الفهري، ولبث في منصبه شهرين.
- ثم يحيى بن سلمة الكلبي - ولاه بشر بن صفوان عامل إفريقية، فقدم الأندلس سنة (١٠٧هـ) وامتد حكمه عامين ونصف لم يحدث فيها شيء يُذكر.

---

(١) «دولة الإسلام في الأندلس» د/ عنان، (جـ١، ص٨٢).

- ثم تولى عثمان بن أبي نسعة الخثعمي، فقدِمها في (شعبان سنة ١١٠هـ)، ولبث في منصبه ستة أشهر ثم عُزِلَ.
- ثم تولى حُذيفة بن الأحوص القيسي فلم تطل ولايته سوى أشهر أيضًا.
- ثم تولى الهيثم بن عبيد الكلابي - أو الكناني - فقدم الأندلس في (المحرم سنة ١١١هـ).

وبالطبع فإن هذا التتابع أصاب الجزيرة بالخلل والاضطراب، وتفاقم الخلاف بين الزعماء والقبائل.

فلما ولي الهيثم حاول أن يقمع الفوضى والسيطرة على النظام، وفي سبيل تحقيق ذلك طارد الشغب والفوضى بشدة، واضطهد معظم مخالفيه في الرأي، وبالأخص اليمنية، وتتبع كثير منهم بالسجن والمطاردة، وقاد حملة ضد «منوسة» وهو زعيم بربري غامض الشخصية، كان حاكمًا لمنطقة الاستريّاس، وظهرت منه أعراض التمرد، وفشل الهيثم في قمع التمرد؛ نتيجةً لتفكك الجيش وتمرد البربر، ولم يلبث الهيثم أن توفي بعد أن حكم الأندلس عامين.

فاختارت «الجماعة» مكانه محمد بن عبد الله الأشجعي؛ حتى يُعيَّن الوالي الجديد، فلبث في منصبه شهرين؛ حتى عُيِّنَ عبد الرحمن الغافقي واليًا على الأندلس مرة أخرى في (صفر سنة ١١٣هـ)[١].

(١) «نفح الطيب» (جـ٢، ص٥٦).

ولاية عبد الرحمن الغافقي الثانية سنة (١١٣هـ)

بموافقة خليفة المسلمين هشام بن عبد الملك عيّن عبيدة بن عبد الرحمن السلمي، والي إفريقيا: عبد الرحمن الغافقي واليًا على الأندلس في (صفر سنة ١١٣هـ - أبريل سنة ٧٣١م)، فكانت ولايته الثانية.

وقد كان عبد الرحمن - كما ذكرنا من قبل - جنديًا عظيمًا، ظهرت مواهبه الحربية في غزوات فرنسا، وحاكمًا قديرًا بارعًا في شئون الحكم والإدارة، ومُصلحًا كبيرًا يضطرم رغبة في الإصلاح، بل كان بلا شكّ أعظم ولاة الأندلس وأقدرهم جميعًا، وقد تحدّث ابن عبد الحكم وغيره[1] على تقدير عبد الرحمن الغافقي والتنويه برفيع خصاله، والإشادة بعدله وحلمه وتقواه.

ورحبت الأندلس قاطبة بولاية الغافقي، وأحبه الجند لعدله ورفقه ولينه، وجمعت هيبته كلمة القبائل فتراضت مضر وحمير، وذاب الصراع بين اليمنية والقيسية في ظلّ عدله هناك، وعاد الوئام للجيش.

وبدأ عبد الرحمن ولايته بزيارة الأقاليم المختلفة، فنظم شئونها، وطاف الأقاليم - أقاليم الأندلس - ينظر شئون الناس ومظالمهم، ويقتص من القوي للضعيف، ويعزل الولاة الذين حادوا عن جادة الاستقامة، ويستبدل بهم ولاةً معروفين بالعدل والنزاهة، متأهبًا لفتح بلاد الغال - أو غاليا - والتي عُرفت عند المسلمين باسم: «الأرض الكبيرة» وهي فرنسا حاليًا.

دعا عبد الرحمن المسلمين من اليمن والشام ومصر وإفريقية إلى مناصرته، فأقبلت عليه الجموع المؤمنة المجاهدة؛ فازدحمت بهم قرطبة قاعدة الأندلس في أيامه، وكان عبد الرحمن الغافقي يتوقُ إلى الانتقام لمقتل السمح بن مالك وهزيمة

---

(١) انظر «جذوة المقتبس» للحميدي (جـ٦، ص ٢٥٥) مع ابن عبد الحكم (ص٢١٦) وما بعدها.

المسلمين في تولوشه (تولوز) ، وبدأ الفرنج والقوط في الولايات الشمالية بالتحرك لمهاجمة المواقع الإسلامية.

عندئذ لم يرَ بدًّا من السير إلى الشمال قبل أن يستكمل كل أهبته، على أنه استطاع أن يجمع أعظم جيش سيَّره المسلمون إلى فرنسا، وفي أوائل سنة (٧٣٢م) أوائل سنة (١١٤هـ) سار عبد الرحمن إلى الشمال مخترقًا ولاية أراجون (الثغر الأعلى) وناڤار (بلاد البشكنس) وعبر البرنية عن طريق بنبلونة، ودخل فرنسا في (ربيع سنة ٧٣٢م) وزحف فورًا على مدينة آرل الواقعة على نهر الرون، لتخلفها عن آداء الجزية، وقد استولى عليها بعد قتال عنيف ومعركة هائلة نشبت على ضفاف النهر بينه وبين قوات الدوق أودو.

ثم زحف غربًا وعبر نهر الجارون، وانقض المسلمون على ولاية أكوتين، فتساقطت مدنها وودیانها، وكانت إمارة أكوتين في ذلك الوقت تمتد بين نهر الرون شرقًا وخليج غسقوين (بسكونية) غربًا، وبين اللوار شمالاً ونهر الجارون جنوبًا، وتشمل مقاطعات فرنسا الحديثة جويان وبيرجور وسانتونج وبواتو وڤنده وجزءًا من انحو[١].

وقد حاول أورد قائد الفرنج أن يوقف زحف المسلمين، ولكن الجيشين التقيا على ضفاف نهر الدردون، فهزم الدوق أودو هزيمة فادحة، ومزّق جيشه شرَّ ممزق، وقد تحدّث مؤرخي الفرنج عن ذلك فقال حبرهم[٢]:

« والله وحده يعلم كم قُتل في تلك الموقعة من النصارى » .

ثم واصل عبد الرحمن الغافقي ورجاله الشجعان مطاردة جيش الدوق حتى عاصمته بوردو (بروال) واستولى عليها بعد حصار قصير، وفرّ الدوق في نفر من صحبه إلى الشمال، وسقطت أكوتين كلها في يد المسلمين، ثم ارتد

---

(١) د/ عنان . الهامش (جـ١ ، ص٩٠).

(٢) إيرديدور الباجي – المصدر السابق.

عبد الرحمن نحو الرون كرّة أُخرى، واخترق جيش المسلمين برجونية واستولي على ليون، وبيزا نصون، ووصلت طلائعه حتى صانص التي تبعد عن باريس نحو مائة ميل فقط، وارتد عبد الرحمن بعد ذلك غربًا إلى ضفاف اللّوار؛ ليُتم فتح هذه المنطقة، ثم يقصد إلى عاصمة الفرنج.

وواصل الجيش الإسلامي مسيرته الظافرة، حتى افتتح نصف فرنسا الجنوبي كله من الشرق إلى الغرب في بضعة أشهر فقط.

وامتدت سيطرة المسلمين على خط قدّره المؤرخون بألف ميل من صخرة طارق (جبل طارق) إلى ضفاف اللّوار، وقد كاد هذا الاقتحام وبهذه المسافة الطويلة، كاد أن يحمل العرب إلى حدود بولونيا وأودية وسهول اسكتلندا.

ويقول جيبون أحد مؤرخيهم: «فليس الرّين بأمنع من النيل أو الفرات، ولعل أسطولاً عربيًا كان يصل إلى مصب التيمز دون معركة بحرية، بل ربما كانت أحكام القرآن تُدرس الآن في معاهد أُكسفورد، وربما كانت منابرها تؤيد لمحمد صدق الوحي والرسالة»[١].

(١) د/ عنان (جـ١ ، ص٩١)، والمؤرخ هو إدوارد جيبون.

معركة بلاط الشهداء

الفرنجة: شعبة من أولئك البربر الذين غزوا روما، وتقاسموا تراثها، وحلوا في ألمانيا وفرنسا، وتعني كلمة الفرنجة «الحر».

حكم منهم البيت الميروفنجي من سنة (٤٨١م) وحتى سنة (٧١٦م)، وكان الحكام الميروفنجيون في آخر حياتهم كما وصفهم المؤرخ إينهارت: أنه لم يكن للملك شيء في المملكة سوى اسمه، وذوائب شعره المرخاة، ولحيته الطويلة، حتى إذا جلس الواحد منهم على عرشه، أخذ يلهو بإدارة شؤون الدولة الصبية، فيستقبل الرسل الوافدين عليه من مختلف الممالك، ويكلمهم بكلمات يتلقنها ليتفوَّه بها صاغرًا مأمورًا، ولم يكن للملك ما يصح أن يدعيه لنفسه سوى ضيعة صغيرة فيها مسكنه الضئيل حجمه، وحاشيته القليل عددها، فإذا اقتضى الأمر سفرًا، ركب عربة مثل عربات المزارعين من أهل الريف تجرها الأبقار، ويسوقها فلاح من الفلاحين، وإذا جاء إلى القصر، أو ذهب إلى الاجتماع السنوي العام، سار موكبه في هذه الهيئة، على حين أصبح رئيس البلاد مسيطرًا في شؤون الإدارة والحكم، مهيمنًا على جميع المسائل السياسية الداخلية منها والخارجية»[١].

وكان ملك الفرنج يومئذ تيودوريك الرابع، ولكن ملوك الفرنج كانوا في ذلك العصر أشباحًا قائمة فقط، وكان المحافظ شارل مارتل هو الملك الحقيقي، يستأثر بكل سلطة حقيقة، وعليه يقع عبء الدفاع عن ملكه، وأمته، فاجتمعت الفرنج إلى ملكها الأعظم شارل - وهذه سمة للوكهم - فقالت له: ما هذا الخزي الباقي في الأعقاب، كنّا نسمع بالعرب ونخافهم من جهة مطلع الشمس حتى أتوا من

---

(١) «تاريخ أوروبا - العصور الوسطى» تأليف: هـ. أ. ل فيشر، الطبعة الثالثة - دار المعارف - مصر ص٧٠.

مغربها، واستولوا على بلاد الأندلس، وعظيم ما فيها من العدّة والعدد، بجمعهم القليل وقلة عدتهم وكونهم لا دروع لهم.

فقال لهم ما معناه: «الرأي عندي أن لا نتعرض لهم في جرحتهم هذه؛ فإنهم كالسيل يحمل من يصادره، وهم في إقبال أمرهم، ولهم نيات تغني عن كثرة العدد، وقلوب تُغني عن حصانة الدروع، ولكن أمهلوهم حتى تمتلئ أيديهم من الغنائم، ويتخذوا المساكن، ويتنافسون في الرياسة، ويستعين بعضهم ببعض، فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر»(١).

ويقول الدكتور عنان في هذا الشأن:

«ونستطيع أيضًا أن نُفسر تمهل شارل مارتل بأنه كان يقصد إلى ترك خصمه ومنافسه أودو دون إغاثة؛ حتى يقضي المسلمون على مُلكه وسلطانه، فيتخلص بذلك من منافسته ومناوأته»(٢).

وعلى أي حال فإنّ عبد الرحمن كان قد اقتحم أكوتين وجنوبي فرنسا كله، حينما تأهب شارل مارتل للسير إلى لقائه، وجاء الدوق أودو بعد ضياع، وتمزيق قواته يطلب العون والنجدة من خصمه القديم شارل مارتل، وكان شارل قد حشد جيشًا ضخمًا من الفرنج ومختلف العشائر الجرمانية المتوحشة، والعصابات المرتزقة فيما وراء الراين، يمتزج بين المقاتلة من أمم الشمال كلها، وجنّد جندًا غير نظاميين، نصف عراة يتشحون بجلود الذئاب، وتنسدل شعورهم الجعدة، فوق أكتافهم العارية، وسار زعيم الفرنجة في هذا الجيش الجرار نحو الجنوب لملاقاة العرب في الجبال والهضاب؛ حتى يُفاجئ العدو في مراكزه قبل أن يستكمل الأهبة لرده، وكان الجيش الإسلامي قد اجتاح عندئذ جميع أراضي أكوتين التي تقابل اليوم من مقاطعات فرنسا الحديثة جويان وبريجور وسانتونج وبواتو،

---

(١) «نفح الطيب» (جـ١، ص١٢٩).

(٢) «دولة الإسلام في الأندلس» (جـ١، ص٩٨).

وأشرف بعد سيره المظفر على مروج نهر اللوار الجنوبية، حينما يلتقي بثلاثة من فروعه هي «الكريز» و«الڤيين» و«الكلين».

جرت المعركة في السهل الواقع بين مدينتي بواتييه وتور، حول نهري كلين وڤيين فرعي اللّوار، على مقربة من مدينة تور، وجعل الجيش الإسلامي في زحفه الممتد بين مدينتي بواتييه وتور، كما قدَّمنا، واستولى المسلمون على بواتييه، ونهبوها وأحرقوا كنيستها الشهيرة، ثم هجموا على مدينة تور الواقعة على ضفة اللوار اليسرى واستولوا عليها، وفي ذلك الحين كان جيش الفرنج قد انتهى إلى اللوار، دون أن يشعر المسلمون بمقدمه في البداية، وأخطأت الطلائع الإسلامية تقدير عدده وعدته، فلما أراد عبد الرحمن أن يقتحم اللوار، لملاقاة العدو على ضفته اليمنى، فاجأه شارل مارتل بجموعه الجرارة، وجيشه الكبير العدد والعدة، ووجد عبد الرحمن أن جيش الفرنج يفوقه في العدد والعدَّة، فارتدَّ من ضفاف النهر ثانية إلى السهول الواقعة بين تور وبواتييه (بلاط الشهداء) وعبر شارل اللّوار غربي تور، وعسكر بجيشه على بعد أميال قليلة من الجيش الإسلامي بين نهري كلين وڤيين فرعي اللّوار.

حالة الجيش الإسلامي قبل القتال:

كانت حالة الجيش الإسلامي تدعو إلى الخوف والقلق، فقد كان الشقاق مضطرمًا بين قبائل البربر التي يتألف منها معظم الجيش، وكانت تتوقُ إلى الانسحاب ناجيةً بغنائمها الكبيرة، وكان المسلمون في الواقع قد استصفوا ثروات فرنسا أثناء سيرهم وانتصارهم المظفر، فقد أثقلوا أنفسهم بما لا يقدر ولا يحصى من الذخائر والغنائم والسبيّ، فكانت هذه الأثقال النفيسة تحدث الخلل في صفوفهم، وتُثير بينهم ضروب الخلاف والنزاع، وقدّر عبد الرحمن خطر هذه الغنائم على نظام الجيش وأُهبته، وخشيَ مما تُثيره في نفوس الجند من الحرص والانشغال، وحاول عبثًا أن يحملهم على ترك شيء منها، ولكنه لم يشدد في

ذلك خيفة التمرد، وكان المسلمون من جهة أُخرى، قد أنهكتهم غزوات أشهُرٍ متواصلة منذ أن دخلوا فرنسا، ونقص عددهم بسبب تخلف حاميات عديدة منهم، في كثير من القواعد والمدن المفتوحة، ولكن عبد الرحمن تأهب لقتال العدو، وخوض المعركة الحاسمة بعزم وثقة(١).

بدء المعركة:

لقد بدأت المعركة قرب تور، وانتهت قرب بواتييه، وقد قيل أن مكانها كان بجوار قصر كبير، والقصر يسمى بلاط، وربما كان لهذا القصر علاقة كبيرة بحوادث المعركة(٢).

بدأ القتال في اليوم الثاني عشر أو الثالث عشر من أكتوبر سنة (٧٣٢م) أواخر (شعبان سنة ١١٤هـ)، ونشبت بين الجيشين معارك مجلبة مدى سبعة أيام أو ثمانية، احتفظ فيها كل بمراكزه، وفي اليوم التاسع نشبت بينهما معركة عامة، فاقتتلا بشدّة وتعادل، حتى دخول الليل، واستأنفا القتال في اليوم التالي، وأبدى كلاهما منتهى الشجاعة والجلد، حتى بدأ الإعياء على الفرنج، ولاح النصر في جانب المسلمين، ولكن حدث عندئذ أن افتتح الفرنج ثغرة إلى معسكر الغنائم الإسلامي، وخشى عليه من السقوط في أيديهم.

وتقول رواية أخرى – ربما أكثر وضوحًا –: أن معسكر الغنائم سوف يقع في يد العدو، فارتدت قوة كبيرة من الفرسان من قلب المعركة إلى ما وراء الصفوف لحماية الغنائم، وتواثب كثير من الجند للدفاع عن غنائمهم، فدبَّ الخلل في صفوف المسلمين، وعبثًا حاول عبد الرحمن أن يُعيد النظام وأن يُهدئ روع الجند، وبينما هو يتنقل أمام الصفوف يقودها ويجمع شتاتها، إذ أصابه من جانب الأعداء سهم أودى بحياته، فسقط قتيلاً من فوق جواده، وعمّ الذعر

(١) «نفح الطيب» (جـ١، ص١٠٩)، (جـ٢، ص٥٦).

(٢) «فجر الأندلس» د/ حسين مؤنس (ص٢٧١).

والاضطراب في الجيش الإسلامي، واشتدت وطأة الفرنج على المسلمين، وكثر القتل في صفوفهم، ولكنهم صمدوا للعدو حتى جنَّ الليل، وافترق الجيشان دون فصل، وكان ذلك في اليوم (الحادي والعشرين من أكتوبر سنة ٧٣٢م) – أوائل (رمضان سنة ١١٤هـ)[١].

وهنا اضطرم الجدل والنزاع بين قادة الجيش الإسلامي، واختلف الرأي، وسرى التوجس والفزع، ورأى الزعماء أن كل أمل في النصر قد غاض وضعف، فقرروا الانسحاب على الفور، وفي الحال غادر المسلمون مراكزهم، وارتدوا في جوف اللّيل وتحت جنح الظلام جنوبًا صوب قواعدهم في سبتمانيا، تاركين أثقالهم ومعظم أسلابهم وقد غنمها العدو منهم، وفي فجر الغد، لاحظ شارل وحليفه أودو سكون المعسكرات العربية، فتقدما منها بحذر وإحجام، فألفياها خاوية خالية، وخشي شارل الخديعة والكمين؛ فاكتفى بانسحاب العدو، ولم يجرؤ على مطاردته، وآثر العود بجيشه إلى الشمال.

وفي وصف مُبالغ فيه جاء في روايات الغربيين للمعركة قال أحدهم:

«ولما رأى عبد الرحمن أن السهول قد غصت بجموعه؛ اقتحم الجبال، ووطئ السهول بسيطها ووعرها، وتوغّل مُثخنًا في بلاد الفرنج وسحق بسيفه كل شيء، حتى أن أودو حينما تقدّم لقتاله على نهر الجارون وفرَّ منهزمًا أمامه، لم يكن يعرف عدد القتلى سوى الله وحده، ثم طارد عبد الرحمن الكونت أودو، وحينما حاول أن ينهب كنيسة تور المقدسة ويحرقها، التقى شارل أمير فرنج أوستراسيا، وهو رجل حرب منذ فتوته، وكان أودو قد بادر بإخطاره، وهناك قضى الفريقان أسبوعًا في التأهب، واصطفا أخيرًا للقتال، ثم وقفت أمم الشمال كَسُورٍ منيع، أو منطقة من الثلج لا تُخترق، وأثخنت في العرب بحد السيف»[٢].

---

(١) انظر ابن عذارى في «البيان المغرب» (جـ١، ص٣٧)، «الكامل» لابن الأثير (جـ٥، ص٧٤)، وابن خلدون (جـ٤، ص١١٩)، والمقري (جـ٢، ص٥٦)، و«ابن عبد الحكم» (ص٣١٧) بتصرف يسير.

(٢) «دولة الإسلام» د/ عنان – والرواية عن إيزيردر الباجي الذي كان معاصرًا للموقعة.

ولما أن استطاع أهل أوستراسيا (الفرنج)، بقوة أطرافهم الضخمة، وبأيديهم الحديدية، التي تُرسل من الصدر توًا ضرباتها القوية، أن يُجهزوا على جموع كبيرة من العدو، التقوا أخيرًا بالملك (عبد الرحمن) وقضوا على حياته، ثم دخل الليل ففصل بين الجيشين، والفرنج يلوحون بسيوفهم العالية احتقارًا للعدو، فلما استيقظوا في فجر الغد، ورأوا خيام العرب الكثيرة كلها مصفوفة أمامهم، تأهبوا للقتال معتقدين أن جموع العدو جاثمة فيها، ولكنهم حينما أرسلوا طلائعهم، ألفوا جموع المسلمين، قد فرّت صامتة تحت جنح الليل تولى شطر بلادها، على أنهم خشوا أن يكون هذا الفرار خديعة يعقبها كمين من الجهات الأخرى، فأحاطوا بالمعسكر حذرين، ولكن الغزاة كانوا قد فرّوا، وبعد أن اقتسم الفرنج الغنائم والأسرى فيما بينهم بنظام، عادوا مغتبطين إلى ديارهم».

وتحدث المؤرخ الغربي إدوارد جيبون عن نتائج هذه المعركة بالنسبة للفرنج فقال:

«إن هذه الموقعة أنقذت آباءنا البريطانيين وجيراننا الفرنسيين من نير القرآن المدني والديني، وحفظت جلال رومة، وأخّرت استعباد قسطنطينية، وشدّت بأزر النصرانية، وأوقعت بأعدائها بذور الفشل»[1].

المسلمون في الأندلس بعد معركة بلاط الشهداء:

لم يخسر المسلمون في بلاط الشهداء بقدر ما خسرت بلاد الأندلس من هزيمة المسلمين ووقف تقدمهم، ولا نستدل على قولنا هذا إلاّ بأقوالهم هم، فيقول «ول ديورانت» في قصة الحضارة: «ولم تشهد بلاد الأندلس في تاريخها كله حكمًا أكثر حزمًا وعدالة وحرية مما شهدته في أيام فاتحيها العرب»[2].

وقد بالغ المسيحيون الأوربيون في تقدير عدد القتلى من المسلمين، حتى

(١) المصدر السابق.

(٢) قصة الحضارة - ول ديورانت.

أوصلهم أحد مؤرخيهم إلى (٣٧٥) ألف قتيل، فهل حشد عبد الرحمن الغافقي نصف مليون جندي على أقل تقدير لتكون خسائره هذا الرقم الفلكي؟ وإذا كانت هذه الأرقام حقيقية فمن أين جاء الغافقي بتمويل ومواصلات هذه الجيوش الجرارة، والتي لو حشدها المسلمون لكانت أوربا كلها تحت أقدامهم في أقل من عام.

ولو كانت هناك مطاردة من « شارل » وجنوده لصدقنا أقوالهم عن التمزيق والأشلاء؛ بسبب فوضى المطاردة والذعر، ولكن الحقيقة أن « شارل » برغم النصر الذي حققه هو الذي كان مذعوراً، فقد وقف أمام معسكر المسلمين خائفًا مرتابًا يظن أنها حيلة من حيل الحرب وأن المسلمين على وشك إعادة الهجوم والقتال، فوجد خيامهم خالية، وقد انسحبوا انسحابًا منظمًا، وذهبوا في جنح الظلام، أما هو فلم يجرؤ على مواصلة المطاردة، أو حتى التفكير في ذلك، بل انسحب شمالاً مكتفيًا بما حققه.

ولم يتوقف المسلمون عند أحداث بلاط الشهداء، بل تحالف « مورون » دوق مرسيليا مع يوسف بن عبد الرحمن الفهري والي أربونة، وزحفا معًا وعبروا نهر الرون، واستوليا على آرل عام (٧٣٥م)، ثم حاصرت الجيوش المتحالفة مدينة فرتا وهي المعروفة اليوم باسم « سان ريمي » ثم تقدمت هذه الجيوش واستولت على أفينيون، وهي التي يسميها العرب « صخرة أبينون » كما وصل المسلمون إلى نهر ديرانس » أحد فروع نهر الرون، وهو الذي تقع عليه مدينة أفينيون، عند نقطة اتصاله بالرون، وظلّ المسلمون يتحكمون في « بروفانس » أربع سنوات، لم يجرؤ خلالها أحدٌ على منازعتهم السلطان فيها[١].

وزحف شارل مارتل عام (٧٣٢م)، واستولى على لودون (ليون)، وكان المسلمون قد تخلوا عنها بعد بلاط الشهداء، كما تخلوا عن برجنديا، وفي عام (٧٣٥م) توفي الدوق أودو، ووافق شارل على أن يخلف « هينود » أحد أبناء

(١) « المسلمون في أوروبا » (ص١١٧)، وانظر « فجر الأندلس » (٢٧٨) د/ حسين مؤنس.

أودو في منصب الدوقية، مع تبعيته لشارل، فاقسم «هينود» يمين الولاء له. ولما اطمأنّ عبد الملك بن قطن الفهري إلى نجاح قائده يوسف الفهري، انصرف إلى تدعيم سلطان المسلمين في إمارات جبل البرانس، لكنّه لم يوفّق، فولى الخليفة مكانه عقبة بن الحجاج السلولي عام (١١٦هـ - ٧٣٤م) والسلولي كما وصفه ابن عذارى «صاحب بأس ونجدة ونكاية للعدو»[١].

لقد كان السلولي من طراز سلفه الغافقي في حب الجهاد والعدل، وذلك ما ذكره ابن عذارى أيضًا؛ إذْ يقول عنه: «أن الرجل كان إذا أسرَ الأسير لم يقتله حتى يدعوه إلى الإسلام، ويُبيّن له فضائله، فأسلم على يديه ألف رجل»[٢].

مما يُثبت لنا تاريخيًا أن عقبة السلولي، ومن عَملَ تحت إمرته من المسلمين كانوا يُؤثرون الرفق، حتى مع الأسرى - ومن كان مصيرهم القتل في قواعد الحرب في تلك الأيام - فكيف بأهل المدن والأرياف أو الأديرة والكنائس.

ولما تولى عقبة بن الحجاج السلولي بعد عبد الملك بن قطن الفهري لم يجد ما يأخذه عليه، فعهد إليه بقيادة الخيّالة، وأرسله إلى الثغر، وأخذ يُعدّ العُدَّة لعبور البرانس[٣].

وقد اشتدّ عزم المسلمين وازداد إصرارهم على الثأر لبلاط الشهداء، فحصّنوا ما بأيديهم من مدن فرنسا «غاليا»، و شحنوها بالمقاتلين، ثم عبروا «دوفيني» شمال بروفانس، وفتحوا «فالانس» على نهر الرون، واستعادوا «ليون» و«برجنديا»[٤].

وجال عقبة السلولي في شرق فرنسا، في الوجهة التي سلكها عنبسة قبله،

---

(١) «البيان المغرب» لابن عذارى (جـ٢، ص٢٩).

(٢) المصدر السابق.

(٣) «ابن عبد الحكم» (ص٢٩٣).

(٤) «نفح الطيب» (جـ١، ص٢٢٠).

ولكنه لم يصل إلى ما وصل إليه عنبسة شمالاً، وسينال الشهادة قرب قرتشونه، إحدى مدن سبتمانيا في (صفر سنة ١٢٣هـ)[١].

في هذه الأثناء استعدَّ شارل مارتل لاسترداد ليون وبروفانس وأفنبيون، والتي تُعدّ مفتاح الرون، وقرر الاستيلاء على مرسيليا أيضًا؛ ليتخلص من تحكم المسلمين في جنوب فرنسا، هذا التحكم الذي يؤدي إلى ضيق اقتصادي شديد لغرب أوروبا.

استولى شارل مارتل عام (٧٣٧م) على أفينون، واقتحمها بعد أن استمات المسلمون في الدفاع عنها، ثم حاصر أربونة معقل المسلمين في جنوبي فرنسا، وأميرها يومئذ «الهيثم» - أو هرثمة كما في بعض المصادر - ، ولكنه عجز عن فتحها؛ إذْ أسرع عقبة السلولي، وأرسل جيشًا عن طريق البحر؛ لنجدة أربونة غير أن شارل مارتل باغت هذه النجدة قبل أن تتهيأ للقتال، وقضى عليها.

ورغم ذلك صمدت أربونة للحصار، مما اضطر شارل إلى الرحيل عنها بعد أن نازل المسلمين أيامًا، أُصيب له فيها رجالٌ عديدون، فتعثَّرَ عليها المقام، وخامره ذعرٌ وخوفٌ من المسلمين، فزال عنهم راحلاً إلى بلده، وقد نصب في وجه المسلمين حصونًا على وادي ردونة، ملأها بالرجال والعتاد، فأصبحت ثغرًا بين بلاده والمسلمين[٢].

وقبل رحيل شارل أمر رجاله بتخريب القلاع في «نيم» و«آجه» و«بيزبي»، و«ماجلون» التي تُعرف باسم «ثغر المسلمين»، إذ كانت مرسى آمنًا للسفن الإسلامية القادمة من الأندلس وإفريقية، فكان تخريبه لها بقصد حرمان المسلمين من الإمدادات التي تصل عن طريقها[٣].

---

(١) المصدر السابق (جـ١، ص٢٠٥).

(٢) انظر «نفح الطيب» (جـ١، ص٢٧٤).

(٣) «فجر الأندلس» (ص٢٨١) وما بعدها.